٢ ـ العــجوزان [1]

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قال محدّثى : ولما حقلت لهما أيها العجوزان : أريد أن أسافر إلى سنة ١٨٩٥ ؛ نظر إلىّ العجوز الظريف (ن) وقال : يا بنىّ أحسبُ رؤيتك إياى قد دنت بك من الآخرة ... فتريد أن تلوذ بأخبار شبابنا لتنظر الينا وفينا روحُ الدنيا

قال الأستاذ (م) : وكيف لا تريه الآخرة وأ كثرك الآن فى « المجهول » ؟

قال : ويحك يا (م) لا تزال على وجهك مسحة من الشيطان هنا وهنا ؛ كأن الشيطان هو الذى يُصلح فى داخلك ما اختلّ من قوانين الطبيعة ، فلا تَستَبِينُ فيك السنُّ وقد نيَّفتَ على السبعين ، وما أحسب الشيطان فى تنظيفك إلا كالذى يكنس بيته ....

قال (م) : فأنت أيها العجوز الصالح بيتٌ قد تركه الشيطان وعلّق عليه كلمة (للايجار) ....

فضحك (ن) وقال : تا لله إن الهرم لهو إعادة درس الدنيا ، وفهمها مرة أخرى فهماً لا خطأ فيه ، إذ ينظر الشيخ بالعين الظاهرة ، ويسمع بالأذن الظاهرة ، ويلمس باليد الظاهرة ... وتا لله إن الشيطان لا معنى له إلا أنه وقاحةُ الأعصاب

قال (م) : فأنت أيها العجوز الصالح انما أصبحت بلا شيطان لأن الهرم قد أدّب أعصابك ...

قال العجوز الظريف : وعند من غيرنا نحن الشيوخ تطاع الأوامرُ والنواهى الأدبية حقَّ طاعتها ؟ عند من غير الشيوخ تقدّس مثلُ هذه الحكم العالية : لا تعتد على أحد ... لا تفسد امرأة على زوجها ...

* * *

قال المحدث : وضحكنا جميعاً ، وكان العجوز (ن) من الآيات فى الظرف والنكتة ، فقال : تظننى يا بنى فى السبعين ، فوالله ما أنا بجملتى فى السبعين ، والله والله

قال (م) : لقد أهتر الشيخ [1] يا بنى فان هذا من خرفه فلا تصدقه

قال (ن) : والله ما خَرِفت وما قلت إلا حقاً ، فههنا ما عمره خمس سنوات فقط وهو أسنانى ...

قلت : « وربنا وربت » وسنة ١٨٩٥ ؟

قال الأستاذ (م) : أنت يا بنى من المجددين ، فما هواك فى القديم وما شأنك به ؟

وما كاد العجوز (ن) يسمع هذا حتى طَرَفَ بعينيه [2] وحدّد بصره الى وقال : أنتَك لأنت هو ؟ لعمرى إن فى عينيك لضجيجاً وكذباً وجدالاً واحتيالاً وزعماً ودعوى وكفرا والحاداً ، ولعمرى . . .

فقطعت عليه وقلت : « لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون » ، لقد وقع التجديد فى كل شىء إلا فى الشيوخ أجساماً والشيوخ عقولاً ؛ فهؤلاء وهؤلاء عند النهاية ، وغير مستنكر من ضعفهم أن يدينوا بالماضى فان حياتهم لا تلمس الحاضر إلا بضعف

قال العجوز : رحم الله الشيخ (ع) . كان هذا يا بنى رجلاً ينسخ للعلماء فى زمننا القديم ، وكان يأخذ عشرة قروش أجراً على الكراسة الواحدة ، وهو ردىء الخط ، فاذا ورّق لأديب ولم يعجبه خطه فكامه فى ذلك تعلّق الشيخ به وطالبه بعشرين قرشاً عن الكراسة ، منها عشرة للكتابة وعشرة غرامة لاهانة الكتابة . . .

نعم يا بنى إن للماضى فى قلوبنا مواقع ينزل فيها فيتمكن ،

---

(١) الجمهور من أهل اللغة على أن (العجوز) وصف خاص بالمرأة إذا شاخت وهرمت ، ولكن جاء فى اللسان : « ويقال للرجل عجوز » ونقله صاحب التاج عن الصاغانى . ونحن على هذا الرأى ، ولو لم يأت فيه نص عن العرب لابتدعناه وزدناه فى اللغة ؛ ووجهه عندنا أن الرجل والمرأة إذا بلغا الهرم فقدا خصائص الذكورة والأنوثة فلم يعودا رجلا وامرأة ، فاستويا فى العجز فكان الرجل قمناً أن يشارك المرأة فى وصفها ، فيقع اللفظ عليهما جميعاً .

وإنما امتنع العرب أن يقولوا للرجل (عجوز) وخصوا ذلك بالمرأة تعسفاً وظلماً وطغياناً كدأبهم مع النساء . فاذا شاخت المرأة فقد بطلت انوثتها عندهم وعجزت عن حاجة الرجل وعجزت فى كثير ونفتها الطبيعة وبرأت منها ، أما الرجل فبالخلاف لأنه رجل وإذا شاخ وبطل وعجز ولم يستطع أن يكابر فى المعنى — كابر فى اللفظ ... وأبى أن يقال إنه (عجوز) وزعم أن ذلك خاص بالمرأة . . .

ألا إن هذا تزوير فى اللغة ، وإن كان للرجال عليهن درجة فذلك فى أوصاف القدرة لا فى أوصاف العجز

(١) أى أخطأ فى الرأى من تأثير الكبر

(٢) أى حرك أجفانها

ولكن قاعدة (اثنان واثنان أربعة) لا تعد فى الماضى ولا فى الحاضر ولا فى المستقبل ، والحقيقة بنفسها لا باسمها ، وليست تحتاج النار إلى ثوب المرأة إلا فى رأى المغفل

قال الأستاذ (م) وكيف ذلك ؟

قال العجوز : زعموا أن مغفلاً كان يرى امرأته تُضرم الحطب فتنفخ فيه حتى يشتعل ، فاحتاج يوماً فى بعض شأنه إلى نار ولم تكن امرأته فى دارها ، فجاء بالحطب وأضرم فيه وجعل ينفخ ، وكان الحطب رطباً فدخَّن ولم يشتعل . ففكر المغفل قليلاً ثم ذهب فلَبس ثوبَ امرأته وعاد إلى النار ، وكان الحطب قد جف فلم يكد ينفخ حتى اشتعل وتضرَّم . فأيقن المغفل أن النار تخاف امرأته . . . وأنها لا تتضرم إلا إذا رأت ثوبها

* * *

قال الأستاذ (م) : إن الكلام فى القديم والجديد أصبح عندنا كفنون الحرب تُبدع ما تبدع لتغيير ما لا يتغير فى ذات نفسه ، وعلى ما بلغت وسائلُ الموت فى القديم والجديد فانها لم تستطع أن تميت أحداً مرتين

لقد قرأت يا بنى كثيراً فلم أر إلى الآن من آثار المجددين عندنا شيئاً ذا قيمة . ما كان من هُراء وتقليد زائف فهو من عندهم ، وما كان جيداً فهو كالنفائس فى ملك اللص لها اعتباران إن كان أحدها عند مقتنيها . . . فالآخر عند القاضى (١)

كلا أيها اللص لن تسمىَ مالكاً بهذا الأسلوب ؛ إنما هى كلمة تسخر بها من الناس ومن الحق ومن نفسك

يقولون : العلم والفن والغريزة والشهوة والعاطفة والمرأة وحرية الفكر واستقلال الرأى ونبذ التقاليد وكسر القيود إلى آخره وإلى آخرها . . . فهذا كله حسن مقبول سائغ فى الورق إن كان فى مقالة أو قصة ، وهو سائغ كذلك حين ينحصر فى حدوده التى تصلح له من ثياب الممثلين أو من بعض النفوس التى يمثل بها القدر فصوله الساخرة أو فصوله المبكية ، ولكنهم حين يخرجون هذا كله للحياة على أنه من قوتها الموجبة ، تردُّه الحياة عليهم بالقوة السالبة ، إذ لا تزال تخلق خلقها وتعمل أعمالها بهم وبغيرهم ، وإذا كان فى الانسانية هذا القانون الذى يجعل الفكر المريض حين يهدم من صاحبه — يهدم فى الكون بصاحبه ؛ ففيها أيضاً القانون الآخر الذى يجعل الفكر الصحيح السامى حين يبنى من أهله — يبنى فى الكون بأهله

* * *

قال العجوز (ن) : زعموا أن أحد سلكى الكهرباء كان فيلسوفاً مجدّداً فقال للآخر : ما أراك إلا رجعياً ، إذ كنت لا تتبعنى أبداً ولا تتصل بى ولا تجرى فى طريقتى ؛ ولن تفلح أبدا إلا أن تأخذ مأخذى وتترك مذهبك الى مذهبى . فقال له صاحبه : أيها الفيلسوف العظيم ، لو أنى اتبعتُك لبطلنا معاً فما أذهب فيك ولا تذهب فىّ ؛ وما عَلِمتك تشتمنى فى رأيك إلا بما تمدحنى به فى رأيى

قال العجوز : وهذا هو جوابنا إذا كنا رجعيين عندهم من أجل الدين أو الفضيلة أو الحياء أو العفة الى آخرها والى آخره . ونحن لا نرى هؤلاء المجددين عند التحقيق إلا ضرورات من مذاهب الحياة وشهواتها وحماقاتها تلبّست بعضَ العقول كما يتلبس أمثالها بعضَ الطباع فتزيغ بها . وللحياة فى لغتها العملية مترادفاتٌ كالترادفات اللفظية تكون الكلمتان والكلمات بمعنى واحد ، فالمخرِّب والمخرِّف والمجدِّد بمعنى

كل مجدد يريد أن يضع فى كل شىء قاعدةَ نفسه هو ، فلو أطعناهم لم تبق لشىء قاعدة .

قال الأستاذ (م) إن هذه الحياة الواحدة على هذه الأرض يجب أن تكون على سنّتها وما تصلح به من الضبط والاحكام ، والجلب لها والدفع عنها والمحافظة عليها بوسائلها الدقيقة الموزونة المقدَّرة ، والسهلة فى عملها الصعبة فى تدبيرها . فعلى نحوٍ مما كانت الحياة فى بطن الأم يجب أن نعيش فى بطن الكون بحدود مرسومة وقواعد مهيأة وحيّز معروف ؛ وإلا بقيت حركاتُ هذا الانسان فى معناها كحركات الجنين ، يَرتكضُ ليخرج عن قانونه . فان استمر عمله ألقى به مَسْخاً مشوّهاً من جسد كان يعمل فى تنظيمه ، أو قَذَفَ به ميتاً من جسم كان كل ما فيه يعمل لحياته وصيانته

هذا الجسم كلّه يَشرَع للجنين مادام فيه ، وهذا الاجتماع كله يشرع للفرد ما دام فيه ؛ فكيف يكون أمرٌ من أمر إذا كان الجنينُ مجدّداً لا يعجبه مثلا وضعُ القلب ولا يرضيه عمل

(١) فى كتابنا (تحت راية القرآن) كلام كثير عن التجديد والمجددين وما نراه من ذلك حقاً وما نراه باطلاً

الأم ، ولا يريد أن يكون مقيداً لأنه حرّ ؟

أنظر الى هذا الشرطى فى هذا الشارع يضرب مقبلاً ليدبر ومدبراً ليقبل ، وقد ألبسته الحكومة ثياباً يتميز بها ، وهى تتكلم لغة غير لغة الثياب وكأنها تقول : أيها الناس إن ههنا الانسان الذى هو قانون دائماً ، والذى هو قوة أبداً ، والذى هو سجن حيناً ، والذى هو الموت إذا اقتضى الحال

أتحسب يا بنى هذا الشرطى قائماً فى هذا الشارع لجدران هذه المنازل ؟ كلا يا بنى . إنه واقفٌ أيضاً فى الارادة الانسانية وفى الحسّ البشرى وفى العاطفة الحية . فكيف لا يمحوه المجددون مع أنه فى ذاته ارغامٌ بمعنى ، وإكراه بمعنى غيره ، وقيد فى حالة ، وبلاءٌ فى حالة أخرى ؟

لكنه ارغامٌ ليقع به التيسير ، وإكراه لتتطلق به الرغبة ، وقيدٌ لتتمجد به الحرية ؛ وكان هو نفسه بلاءً من ناحية ليكون هو نفسُه عِصمةً من الناحية التى تقابلها

يابنى ! كل دين صالح ، وكل فضيلة كريمة ، وكل خلق طيب ، كل شىء من ذلك إنما هو على طريق المصالح الانسانية كهذا الشرطى بعينه ؛ فاما تخريبُ العالم أيها المجددون وإما تخريب مذهبكم . . . .

* * *

قال العجوز (ن) : أنبحث عما تتسلّط به أم نبحث عما يتسلط علينا . وهل نريد أن تكون غرائزنا أقوى منا وأشد ، أو نكون نحن أشد منها وأقوى ؟ هذه هى المسئلة لا مسئلة الجديد والقديم

فان لم يكن هناك المثل الأعلى الذى يعظم بنا ونعظم به ، فَسَدَ الحسُّ وفسدت الحياة . وكل الأديان الصحيحة والأخلاق الفاضلة إن هى إلا وسائل هذا المثل الأعلى للسمو بالحياة فى آمالها وغاياتها عن الحياة نفسها فى وقائعها ومعانيها

* * *

قال المحدّث : ورأيتنى بين العجوزين كأنى بين نابين ؛ ولم أكن مجدداً على مذهب ابليس الذى ردّ على الله والملائكة وظن لحمقه أن قوة المنطق تغير ما لا يتغير . فسكتُّ حتى إذا فرغا من هذه الفلسفة قلت : والرحلة إلى سنة ١٨٩٥ ؟

(لها بقية — طنطا) مصطفى صادق الرافعى

تجـــربة

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المـازنى

ماذا ترى يصنع رجل يعشق للمرة الأولى فى حياة صاخبة مضطربة ، ولكنها على كثرة ماجرب فيها خلت من الحب ونجت من زلزلته للنفس ؟ ؟

عن هذا كان يسأل « ميم » — وحسبنا من اسمه حرفٌ واحد — وهو جالس إلى مكتبه ، والفتاة التى يحبها قبالته على الشرفة . والجديد من الأمر يتطلب جديداً من التصرف والتدبير ، ولو كانت له خبرة بالحب ، أو سبق له به عهد ، لقاس حاضره على ماضيه ، وأجراه فى مجاريه . وغريب أن يتقضى شبابه وهو فارغ القلب ، وأن يدركه الحب ويعمر فؤاده بعد أن شارف الكهولة ووقف على بابها ، وأخذ الأبيض يختلط بالأسود ، وبدأ الزمن يرسم خطوطه ! ! وإن كان هو لا يحس شيئاً من ذلك ولا يباليه ، ولا يعرف إلا أنه ما زال فى عنفوان الفتوة

وألقى القلم واضطجع وقال يناجى نفسه ، وهو يضحك ساخراً : « هل أصنع كما يصنعون فى هذه الروايات الكثيرة التى قرأتها ؟ وعلى ذكر ذلك — ماذا ترى أبطال هذه الروايات يصنعون فى حالات كهذه ؟ لقد نسيت والله : فكأنى ما قرأتها ولا وقعت عينى عليها . . . وهبنى كنت أذكر ذلك فهل يصح فى دنيا الحقيقة ما يصف الخيال ؟ »

واستطرد من هذا إلى القول بأن الروايات ليست — ولا يمكن أن تكون — خيالاً بحتاً ، وشيئاً يخلقه الانسان من لا شىء ، ولا يحور فيه إلى أصل من حقائق الحياة ، وأنكر قدرة الانسان على هذا الخلق ، وذهب إلى أن كل ما يسعه هو أن يلفق القصة من جملة ما شهد وجرب وسمع ، وأن يكوّن الشخصيات من أشتات ما عرف ، فليست القصص خيالاً ، ولا ما تصفه محالاً ، وإذن يكون تقليدها ميسوراً . . . أودع كونه ميسوراً أو غير ميسور ، وقل إنه لا يكون شططاً

« ولكن القصص يعنى فيها واضعها بترتيب الأحوال والمواقف على النحو الذى يؤثره هو ، والذى يراه أوفق لغايته ، ومن عسى يرتب لى دنياى كما يرتب مؤلف القصة دنيا أبطاله ؟ ؟